

## ذاكرة فظاعات الاستعمار الفرنسي للجزائر: «تهجير قسري» و«خنق جماعي»



فيما تقترب الذكرى الـ60 للاستقلال، رأى مؤرخون أن توطين الأوروبيين الذي ترافق مع ارتكاب مجازر وعمليات ترحيل واسعة كان في صلب استعمار فرنسا للجزائر في القرن التاسع عشر. وشهدت السنوات الـ70 التي أعقبت إنزال القوات الفرنسية في الجزائر في 1830 مجازر كبيرة بما في ذلك عمليات «الخنق بالدخان» المشؤومة والتهجير القسري لمئات الآلاف من السكان من مناطقهم الأصلية. وأوضح أوليفييه لوكور غرانميزون المتخصص الفرنسي في التاريخ الاستعماري لوكالة الصحافة الفرنسية «في البداية، ساد منطق «طرد العرب» من ديارهم واستبدالهم تبعه منطق استغلال أراضيهم ونهبها». وتابع زميله الجزائري حسني قيطوني الباحث في جامعة «إكستر» البريطانية أن الغزو كان هدفه «استبدال شعب بآخر»، موضحاً أنها «كانت في الأساس سياسة استبدال وسياسة توطين». ولا يرفض المؤرخ الفرنسي بنجامان ستورا مصطلح «الاستيطان»، لكنه يستبعد فكرة أن يكون الأمر استراتيجية متعمدة. ويقول «لم يكن هناك فكر ممنهج لاستبدال السكان... لم تكن سياسة استبدال».

وأضاف أن الأمر كان «شبيهاً بالسياسة التي تم اختبارها في الغرب الأمريكي. نأتي بمستوطنين للسيطرة على البلاد. لا توجد استراتيجية. إنه استيطان تدريجي بإضافة سكان يصلون في حركة غير منظمة».

## الخنق بالدخان

يؤكد ستورا أن «غزو الجزائر كان مروعاً وجرى باستخدام العنف»، موضحاً أن ما حدث في الجزائر «هو استخدام الجيش الفرنسي في إفريقيا «الأرتال الجهنمية» التي استخدمت ضد المتمردين في حرب فونديه في بداية الثورة الفرنسية... وهي تقوم على قتل السكان وترحيلهم».

هذا ما حصل في البليدة، بالقرب من الجزائر العاصمة؛ حيث «تم قتل أكثر من 600 امرأة وطفل ومسن» في تشرين الثاني/نوفمبر 1830، كما ذكر المؤرخ قيطوني.

وأوضح أنه منذ عام 1840، عندما واجهت فرنسا أزمة اقتصادية كبيرة، «قررت الحكومة (الفرنسية) احتلال الجزائر بأكملها وتوطين «فائض السكان الفرنسيين» فيها».

وبحسب قيطوني، بين 1830 و1930، استولت الإدارة الاستعمارية على 14 مليون هكتار من الأراضي الزراعية، تم التنازل عن جزء منها مجاناً للمهاجرين الأوروبيين، الذين ارتفع عددهم من سبعة آلاف في 1836 إلى 881 ألفاً في 1931.

وأشار غرانميرزون إلى أن ما سُمي «إحلال السلام في الجزائر بدأ فعلياً بتعيين الجنرال بيجو في منصب الحاكم العام في عام 1840». وأضاف أنها كانت فترة «حرب ماحقة»، زال فيها «التمييز بين المدنيين والعسكريين وساحات القتال وأماكن العبادة» التي انتهكت حرمتها حتى عندما لجأ إليها مدنيون للاحتباء.

واخترعت القوات الاستعمارية «الخنق بالدخان». ووثق المؤرخون على وجه الخصوص حالتين: الأولى في منطقة الصبيح (11 حزيران/ يونيو 1844) والثانية في منطقة الظهرة (18 حزيران/ يونيو 1845) أبيدت خلالهما قبائل بأكملها لجأت إلى كهوف سُدت واختنق من كانوا بداخلها بدخان نيران أشعلت بأوامر من الجنرالات الفرنسيين، حسب ما وثق منصور قديدير الباحث في مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية في وهران.

وصنف غرانميرزون هذه الأحداث على أنها «إرهاب دولة: كان الهدف منها ارتكاب مجازر لتكون عبرة وإخضاع «السكان الأصليين» بسهولة الأكبر»، من خلال ما وصفه بأنه «جريمة ضد الإنسانية».

وإضافة إلى «الخنق بالدخان»، أشار المؤرخ إلى «تدمير عشرات القرى وترحيل آلاف المدنيين» من دون مواشيهم إلى أراضٍ أقل خصوبة، ما أدى إلى مجاعات وأوبئة قضت على أعداد كبيرة منهم.

## سلب الهوية

رأى قديدير أن المرحلة الأولى من الغزو تضمنت «إرادة متعمدة للقضاء أو على الأقل لإنقاص عدد السكان حتى لا يشكلوا خطراً على جيش الاحتلال»، ففي 1880، قدّر الديموغرافي الفرنسي رينيه ريكو أن «عدد السكان الأصليين انخفض بنحو 875 ألفاً بين عامي 1830 و1872». وعلى الرغم من ذلك بدأ عدد الجزائريين بعدها يزداد، حتى إنه تضاعف بين عامي 1906 و1948 ليصل إلى تسعة ملايين نسمة.

وذكر الرئيس الجزائري عبد المجيد تبون في تشرين الأول/أكتوبر 2021 أن «5 ملايين و630 ألف جزائري قتلوا بين 1830 و1962»، أي أن أغلب الضحايا سقطوا خلال السنوات الأولى للاحتلال الفرنسي؛ إذ إن حرب الاستقلال أسفرت عن مقتل ما بين 300 إلى 400 ألف جزائري بحسب المؤرخين الفرنسيين، و 1.5 مليون حسب الجزائريين.

واعتبر ستورا أنه بمعزل عن الأرقام التي لا يوجد توافق حولها، كان «الأمر الأهم خلال الغزو الاستعماري هو سلب

(الهوية. فعندما يُجرد شخص من أرضه فإنه يفقد اسمه المرتبط بهذه الأرض». ( أ ف ب

"حقوق النشر محفوظة" لصحيفة الخليج. © 2024